

الكنيسة الأرثوذكسية غداً - ١

الأب أنطوان ملكي

فيما العالم عامةً والأرثوذكسي بشكل خاص يتخبط في جائحة الكورونا والموت يضرب هنا وهناك، حاصداً إكليركيين من كافة الدرجات ورهبان وعلمانيين، يُلاحظ أنّ في الكنيسة الأرثوذكسية تغيرات بنوية سوف يكون لها أثرها الكبير على مستقبل الكنيسة وشهادتها في كل الأرض. محور هذه التأثيرات هو بطريرك القسطنطينية وما يؤتي من أنشطة. هذا المقال قراءة لهذه الأنشطة ولترابطها في محاولة لتسليط الضوء على ما ينتظر الكنيسة الأرثوذكسية في الفترة الممتدة من اليوم إلى سنة ٢٠٢٥ التي اختارها البطريرك المسكوني وبابا روما لعقد مجمع مسكوني يضمّ الأرثوذكس والكاثوليك بمناسبة الذكرى ١٧٠٠ لانعقاد مجمع نيقية الذي انبثق عنه دستور الإيمان الحالي. هذا اللقاء يرى فيه الكثيرون إعلاناً لوحدة يكرر كل من الرجلين وممثلهما الكلام عن مسيرة حتمية نحوها بكل وجوها بما فيها الإفخارستي [١]. [٢].

الأميركيون والكنيسة الأرثوذكسية

بدايةً، نتوقف عند حدث مهم بوقوعه ودلالاته. فبينما كان العالم يقطع أنفاسه بسبب الانتخابات في الولايات المتحدة الأميركية، كان لدى رئيس دبلوماسيتها الوزير بومبيو الوقت والفرصة والإرادة لزيارة تركيا والتقاء البطريرك المسكوني في السابع عشر من تشرين الثاني ٢٠٢٠، والانتقال إلى جورجيا والتقاء البطريرك إيليا في اليوم التالي. رسمياً في جورجيا أعلن أن الاجتماع هو لمناقشة دور الكنيسة الجورجية في دعم الحرية الدينية في العالم [٣]. ما هي الحرية الدينية بنظر الأميركيين؟ ما رشح عن لقاء بومبيو بالبطريرك الجورجي هو طلب الأول أن تعترف كنيسة جورجيا "بالكنيسة الأرثوذكسية في أوكرانيا" التي أنشأتها القسطنطينية مؤخراً. فهل الحرية هي ما يجري في أوكرانيا برعاية الأميركيين والقسطنطينية من مصادر للكنائس وتهجير للكهنه واضطهاد للأديار وللإكليركيين الذين لم يخرجوا من الأبرشية التابعة للكنيسة الروسية؟ [٤] أم أن الحرية الدينية هي ما ترعاه الإدارة الأميركية في السعودية وفلسطين المحتلة وغيرها؟ وهل حدود هذه الحرية هي تقرير سنوي يسمي فيه الكونغرس بعض الدول دون أن يرى في ذلك مانعاً من الاستمرار في تزويدها بالسلاح ودعم أنظمتها؟

في لقاءه البطريرك المسكوني أعلن بومبيو أن الكنيسة الأرثوذكسية شريك أساسي لأميركا. [٥] هذا التصريح يثير جملة أسئلة: أي شراكة قد تكون بين كنيسة ودولة لا يشكل الأرثوذكس فيها أكثر من ١,٥ بالمئة من أهلها، ولا يتبعون بغالبيتهم هذه للكنيسة الشريكة؟ أي شراكة قد تكون بين دولة ورئيس كنسي يبعد مقره عن عاصمة تلك الدولة ما يزيد عن ثمانية آلاف كيلومتراً؟ هل يعرف بومبيو ما هي الكنيسة الأرثوذكسية فعلاً؟ أم أنه يبني تصوره لها على أساس ما أظهر له البطريرك المسكوني؟

دعوة برثلماوس إلى مراجعة الإكليسيولوجيا

نشرت جريدة ناشيونال هيرالد في الحادي والعشرين من تشرين الثاني ٢٠٢٠ مقابلةً مع بطريرك القسطنطينية برثلماوس بمناسبة الذكرى التاسعة والعشرين لتبوءه العرش القسطنطيني. في تلك المقابلة قال البطريرك الكثير وأهم ما أورد حرفياً: "علينا نحن المسيحيين الأرثوذكسيين إعادة النظر في لاهوتنا الكنائسي (الإكليسيولوجيا) إذا كنا لا نريد أن نصبح اتحاداً للكنائس البروتستانتية. لقد أقسمنا منذ سيامتنا الأسقفية على طاعة قرارات المجامع المسكونية، يجب أن ندرك أنه في الأرثوذكسية المسكونية غير القابلة للتجزئة، هناك 'أول'، ليس بالكرامة وحسب، بل أيضاً 'أولاً' بمسؤوليات خاصة وسلطات منتظمة خولتها المجامع المسكونية". [٦].

ما معنى هذا الكلام؟ يخير البطريرك المسكوني الأرثوذكسيين بين النموذج الكاثوليكي والنموذج البروتستانتية. بمعنى آخر هو لا يعترف بالنموذج الأرثوذكسي. هل فشل هذا النموذج أكثر من غيره؟ لغة

التصريح تعني أن النموذج البروتستانتى شرٌّ على الأرثوذكس تلافيه. هل برأيه نجح النموذج الكاثوليكي، الذي يقوم على "أول"، ليس بالكرامة وحسب، بل أيضاً 'أول' بمسؤوليات خاصة وسلطات منتظمة؟ لاهوتياً، إسقاط النموذج الأرثوذكسي هو تخلُّ عن مبدأ الجمعية التي تميّز الأرثوذكسية على كل المستويات، بالرغم مما يعتور ممارسة هذه الجمعية من أخطاء، حتى أنّها شبه معدومة في بعض الأماكن والظروف. لكن يبقى أن الإكليسيولوجيا الأرثوذكسية التي يدعو هذا البطريرك إلى مراجعتها تعلّم وتدافع وتقدّس هذه الجمعية. دعوة البطريرك هذه تفسّر أموراً كثيرة تطرّق إليها الذين قاطعوا اجتماع كريت والذين درسوه ككنايسيانياً ووجدوا فيه ثغراً يتسرّب منها هذا الفكر البابوي، والذي صار معلناً وبتبناه البطريرك المسكوني ويسعى إليه. وهذا الفكر، معطوفاً على هذه الشراكة مع الأميركيين، تفسّران موقف القسطنطينية وممارستها في أوكرانيا ضاربة عرض الحائط بقوانين الكنيسة ودورها الرعائي ومسعاها التقديسي من خلال النسك والأسرار معاً. ولا بدّ أن نشير إلى أن القسطنطينية ضريت سرّ الكهنوت نفسه بقبولها من هم بلا سيامة في الكنيسة حافظةً لهم مواقعهم التي كانوا فيها قبل أن يكونوا في الكنيسة. يتزايد حجم الكلام عن هذه المخالفة في عدة أوساط ناطقة باليونانية وتحديداً الجبل المقدس أثوس. [٧]

انتشار هذا الفكر

ينبغي تسليط الضوء على أن أهم مخاطر هذا الفكر البابوي هو انتقاله بما يشبه العدوى. فكما انتقل من روما إلى القسطنطينية نراه ينتقل إلى كنائس أخرى. قراءتنا للأمر أنه يكون حيثما تلتقي الرغبة بالرئاسة مع بعض الظروف ومنها تدخل السياسة بالكنيسة، تسهل الإصابة بهذا الفكر. بالممارسة غالبية الأرثوذكس باباوات.

البطريرك الاسكندري قرر من ذاته ومن دون العودة إلى مجمع كنيسته أن يعترف "بالكنيسة الأرثوذكسية في أوكرانيا" ورئيسها أبيفاني دومينكو، قبل سنة من اليوم. وإلى اليوم هو لم يناقش الموضوع مع مجعته.

وقد تبعه رئيس أساقفة قبرص بالسلوك نفسه حيث ذكر أبيفاني في الصلاة مع أنه كان قد وعد مجعته بالأيتفرد في أي قرار في هذا الأمر. اجتمع المجمع القبرصي في الثالث والعشرين والخامس والعشرين من تشرين الثاني ٢٠٢٠ وانتهى ببيان ملتبس، ويوضع يشبه الانشقاق في هذه الكنيسة. الميتروبوليت أشعيا مطران تاماسوس رأى في ما يجري "بداية الإطاحة بالنظام الكنسي المجمعى" [٨]. عدد من المطارنة القبارصة قالوا أنهم سوف يمتنعون عن ذكر رئيسهم إذا اشترك في الصلاة مع أبيفاني. تجمّع اللاهوتيين القبارصة أرسل برسالة إلى رئيس الكنيسة معترضاً ومحتجاً على تفرد الرئيس بقراره. [٩] خلاصة القول أن الانشقاق انزع في كنيسة قبرص.

الوحدة الأرثوذكسية

من جهته، المجمع الروسي كان قد اتخذ قراراً بالامتناع عن ذكر الرؤساء الذين يذكرون أبيفاني دومينكو. وعليه، حتى اليوم، سقط من الذبتيخا الروسية البطريرك المسكوني ورئيس أساقفة اليونان والبطريرك الاسكندري ورئيس أساقفة قبرص. إلى هذا، حجم الانقسام في كنيستي قبرص واليونان حول قضية أوكرانيا كبير جداً. ويبدو واضحاً أن مؤيدي الاعتراف بالكيان الذي أنشأه البطريرك المسكوني مستعدون للمخاطرة بوحدة كنائسهم وشعبهم، بالإضافة إلى إصرارهم على عدم احترام قوانين الكنيسة وتقليدها. كتب الكثيرون عن الأرثوذكسية بعد كريت. وبغض النظر عن صحة ما كتبت وتحقق ما تمّ توقعه. حسابياً ما بعد كريت هو أوكرانيا وبالتالي ينبغي التأمل بما بعد أوكرانيا.

بات ثابتاً أن أقوى أسلحة الذين يعترفون بدومينكو وبالكيان الذي أنشأه بطريرك القسطنطينية هو اللعب على وتر الهلينية بوجه السلافية. كثيرون منهم وقعوا في تجربة تحريف التاريخ لكي يبرروا موقفهم كونه لا يمكن تبريره لاهوتياً. لا يجيب هؤلاء جميعاً على مسألة عدم تمتّع دومينكو بالتسلسل الرسولي. التبرير بأن البطريرك المسكوني هكذا رأى، كما أجاب رئيس أساقفة قبرص، هو تكريس لانحراف يفوق

أولوية البابا التي يعتبرها الأرثوذكس العائق الأول أمام الوحدة مع الكاثوليك. هل إذا وقعنا فيها يزول العائق، أي إذا تبنينا البابوية في كنائسنا تأتي الوحدة؟

الثابت الثاني أن السياسة هي لاعب أقوى من التقليد واللاهوت. يد الولايات المتحدة الأمريكية واضحة على خلفية اعتبارها أن الكنيسة الروسية هي أحد أذرع النظام الروسي. بغض النظر عن صحة هذه الفرضية، الأكيد أن تبنيها يستند إلى عدم معرفة بالكنيسة الأرثوذكسية وبنيتها، وهنا يتضح الخطر في دعوة البطريرك القسطنطيني إلى إعادة النظر بالإكليسولوجيا الأرثوذكسية بشكل يؤدي إلى قبول وجود واحد لا مساوي له. الواقع هو أن هناك حاجة لتقييم الإكليسولوجيا القائمة وهناك أسئلة كثيرة مطروحة من تقسيمات الكنيسة الإدارية إلى زواج الأساقفة إلى كهنوت النساء. مناقشة الإكليسولوجيا تنير الموقف الأرثوذكسي من هذه الأمور، بغض النظر عما تنتهي إليه المناقشة من تبني أو رفض. هذه اليد السياسية لن توفر الكنائس التي لا تقع ضمن المحورين الهليني أو السلافي. لكن لكل من هذه الكنائس مشاكلها التي ليست الكورونا سوى أصغرها.

في صربيا، كتب أحد اللاهوتيين أن الكورونا هي بمثابة "مطرقة بيد الدولة على رأس الكنيسة" في وقت حصدت الكورونا صخرتين كنسيتين، هما المطران أمفيلوخوس والبطريرك إيريناوس. تأتي قضيتنا المنشقين في الجبل الأسود ومكدونيا حيث تنادي كل مجموعة إلى استقلالها عن الكنيسة الصربية وإنشاء كنيسة محلية كالزيت على النار. ليس غريباً أن كل هذه الكيانات التي تدعو إلى الانشقاق يرؤسها أشخاص كانوا إكليركيين وأدينوا، وهم يتمتعون بقبول القسطنطينية وصدقتها بأقل تدبير. إلى هذا يد الأميركيين واضحة ويرى كثيرون أن الضغط على الكنيسة هو لاسترضاء الأميركيين. السبب واضح حيث تبدي الكنيسة الصربية تعاطفاً كبيراً مع الروس وكنيستهم وترفض بحزم الكيان المنشأ حديثاً في أوكرانيا. ماذا ينتظر الكنيسة الصربية؟ أي بطريرك سوف يأتي وفي أي اتجاه سوف يسحب كنيسته؟ إلى أي حد قد تترك الدولة المجمع حراً في اختيار من يراه الروح القدس مستحقاً؟

أما كنيسة جورجيا التي قصدها بومبيو فخط دفاعها الأول هو بطريركها. لا أحد يستطيع التكهن من بعده ما الذي سوف يجري. فالانقسام واضح بين المطارنة وقد ظهر جلياً أثناء مناقشة القضية الأوكرانية. جورجيا مهددة أيضاً بالانشقاق، وأميركا ترى فيها حليفاً مهماً على كتف روسيا. نفس الأسئلة التي طرحت حول مستقبل الكنيسة الصربية تُطرح هنا أيضاً.

ماذا لو استطاعت التدخلات السياسية فرض بطريرك في صربيا من فكر البطريرك برثلماوس ومستعد للسير معه والاعتراف بالكيان الأوكراني الجديد؟ ماذا إذا سار الأمر في الاتجاه نفسه في جورجيا؟ يرفض البطريرك القسطنطيني الدعوة إلى اجتماع لرؤساء الكنائس لمناقشة قضية أوكرانيا لأن هناك من قاطع اجتماع كريت، مع أن اجتماع كريت تم من دون الغائبين. لكن حجم الغياب هو تعبير عن رفض الغائبين لوجود أول بدون مساويين في الكنيسة. إذاً بنية الكنيسة الأرثوذكسية تتخلخل ومعها شهادتها لأن في القسطنطينية رئيس قرر التخلي عن المسيرة وإعلان ما يضمن بالرغم من علمه برفض الآخرين وبغض النظر عن التفرقة التي يزرعها في الكنيسة ككل وفي داخل كل من الكنائس.

أنطاكية

كل هذا الكلام في وادٍ وأنطاكية في وادٍ آخر. فأنطاكية تعاني من أخطر من ذلك. مشكلة أنطاكية هي الشلل بسبب السبات الذي تغرق فيه مؤسساتها. هناك محاولات لتحريك هذا الواقع لكنها تبقى على المستوى الفردي. بعض المساهمات على مواقع التواصل الاجتماعي منها ما هو جدي ويحمل اقتراحات جديرة بالنقاش، ولا من يرد. ومن جهة أخرى منها ما هو نشاط دوري يعزز شعور الكاتب بأنه موجود، أو يصدر عن ساعين لحجز مكان في عالم اللاهوتيين. وفي خط آخر خارج جماعة اللاهوت، هناك المهتمون بالطائفة. [١٠]

لله حكمته. يعجز العلم في أنطاكية. الأكيد أن هذا السبات يوقر على القائمين مواجهات لا يحبونها. لكن المطلوب ليس مجرد مخرج، بل شهادة تظهر وجه المسيح حتى عبر الكمامات، شهادة لا يمكن

صياغتها إلا بتفعيل الجمعية في القلوب قبل الأشكال والسعي إلى الجمع في حين الكثيرون يزرعون التفرقة.

خاتمة

يُرد في سفر الجامعة (١٧: ١-١٨) "وَوَجَّهْتُ قَلْبِي لِمَعْرِفَةِ الْحِكْمَةِ وَلِمَعْرِفَةِ الْحَمَاقَةِ وَالْجَهْلِ، فَعَرَفْتُ أَنَّ هَذَا أَيْضًا قَبْضُ الرِّيحِ. لِأَنَّ فِي كَثْرَةِ الْحِكْمَةِ كَثْرَةُ الْغَمِّ، وَالَّذِي يَزِيدُ عِلْمًا يَزِيدُ حُزْنًا". قد نرغب كثيراً في ألا نعرف، وقد يرغب الكثيرون لنا ذلك، لكن المعرفة لم تعد خياراً في القرن الحادي والعشرين. من لا يسع إلى المعلومة هي تسعى إليه. المهم أن يتلقى المعلومة بقلب يقظ لا بعقل منتهيه وحسب. فاليقظة حالة أبعد من انتباه العقل يبلغها محبُّ المسيح الذي ينتظر حبيبه "أَنَا نَائِمَةٌ وَقَلْبِي مُسْتَيْقِظٌ" (نشيد الأنشاد ٥: ٢). باليقظة لا تظلم المعلومة القلب بل توقظه فلا يحبطه كلام هو كالتبشور يغسله المطر، ولا يبرده تردد الشركاء. لا خيار أمام المؤمن إلا أن يواجه بقلب صادق. "قُمْ يَا اللَّهُ واحكم في الأرض لأنك ترث جميع الامم".

[١] <https://catholicstarherald.org/catholic-and-orthodox-journeying-toward-unity/>

[٢] <https://www.vaticannews.va/en/pope/news/2020-11/pope-francis-charity-of-st-andrew-encouragement-in-difficult-ti.html>

[٣] <https://www.rferl.org/a/pompeo-will-emphasize-free-and-fair-elections-during-talks-with-georgian-leaders/30956021.html>

[٤] <https://fpc.org.uk/religion-and-forced-displacement-in-ukraine/>

[٥] <https://www.ekathimerini.com/259272/article/ekathimerini/news/pompeo-hails-patriarch-as-key-partner>

[٦] https://www.thenationalherald.com/community_church_world/arthro/ecumenical_patriarch_bartholomew_speaks_exclusively_to_tnh-1249196/

[٧] <https://spzh.news/en/news/76307-na-fanare-v-ochrednoj-raz-narushili-kanony--klirik-elladskoj-cerkvi>

[٨] <https://www.romfea.gr/ekklisia-kyprou/40671-to-upomnima-tou-mitropolitou-tamasou-stin-iera-sunodo>

[٩] <https://orthodoxia.info/news/kypros-theologoi-zitoyn-syglisi-iera/>

[١٠] <https://www.almarkazia.com/ar/news/show/269850/>